مناقشات قومية

حول "معنى التحرر العربي"

بقلم حكيم دروزه

ليست هذه هي المرة الاولى التي يكتب فيها الاستاذ ناجي علوش حول هذا الموضوع محاولا مهاجمة اسلوب المراحل في النضال او على وجه التحديد: المفاهيم النضالية والسياسية التي جاءت في كتاب « مع القومية العربية ». ومع ان النقد العلمي البناء هو سبيل توضيح الفكرة وبلورتها ، والمباحثة المتواصلة والكشف الواعي هما سبيل تكاملها واخصابها ، الا ان تعصب الكاتب مسبقا لاتجاه معين ، جعله يدور في قسم كبير من مقاله في حلقة من التناقضات ، وحشره في نافذة ضيقة تفتقر الى سعة الافق التي يستلزمها البحث الموضوعي المتجرد .

فبالرغم من الثوب الفلسفي الذي حاول ان يلبسه الكاتب لمقاله بتزويده و« وتزويقه » بالعبارات الفكرية المعقدة ، الا ان هذا الثوب الفلسفي سرعان ما ينزاح امام وضوح الفكرة من جهة ، واستراتيجية النضال العربي الصحيحة من جهة اخرى ، لينكشف عن عدة اخطاء قومية وتنظيمية نضالية واضحة وقع فيها الكاتب .

المجتمع العربي مجتمع شاذ فاسد بكل جوانبه القومية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية . انه مجتمع مجزأ يعيش في ازدواجية الوجود ، معظمه مستعمر وبعضه مغتصب ، ويخيم عليه الظلم وتنعدم فيه العدالة الاجتماعية . وهو مجتمع تراكمت فيه ترسبات الفساد والجمود الموروثة من عصور الانحطاط ، وتركزت فيه عناصر السلبية والهدم بكل قواها وخبرتها وامكانياتها . وهذا الوضع الشاذ الذي نعبر عنه بازمة الوجود العربي ينعكس في نفسية الفرد العربي وحياته كما يحياه مجموع الامة ككل . المجتمع العربي اذن لا تنفع فيه الاصلاحات السطحية الجزئية وانما هو بحاجة الى ثورة حقيقية ، الى انقلاب جذري شامل . هذه الثورة العربية ليست انطلاقة عمياء ولا هبة عاطفية ، بل انها ثورة لها من عمق معناها وشمولها واتساع مداها ما يرتفع بها الى مستوى تجربة قومية انسانية تاريخية . لا بد اذن للثورة العربية من شروط معينة تضمن سلامتها ونجاحها وتحققها .

١ – واول هذه الشروط ، ان يتوفر للثورة العربية الخطوط الفكرية الواضحة التي ستعطي ملامح المستقبل العربي ويتحدد ، حسبها شكل ومحتوى الحياة العربية المقبلة ، وذلك حتى تأتي ثورة هادفة تعرف مسبقا ماذا تريد وتتجنب التخبط وتضمن تحقيق اهداف الشعب والنهوض به الى مستوى الرسالة . لا بد اذن من عقيدة تتكامل تفصيلياتها مع التجربة العملية ، تضع الحلول الشاملة للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تكون بتفاعلها ازمة الوجود العربي ، وتحدد الاهداف القومية للامة .

٢ – وثاني هذه الشروط ، ان يتوفر للثورة العربية التخطيط النضالي العلمي السليم الذي يحدد استراتيجية النضال العربي واسلوبه تحديدا ينبع من طبيعة المرحلة التي نمر بها وطبيعة المشاكل والظروف والملابسات التي تحيط بها . ما هو الطابع العام للمرحلة التي نمر بها اليوم ؟ ما هي الاخطار والمشاكل الرئيسية التي يجب ان تسلط عليها الانوار ؟ ما هي استراتيجية النضال في هذه المرحلة واين يجب ان تتركز طاقات الامة النضالية ؟ الخ... لا بد للثورة العربية من هذا التخطيط النضالي حتى لا تقع الثورة في الارتجال وفي المثالية الخيالية التي لا تأخذ بعين الاعتبار ظروف المرحلة وطبيعة القوى التي تجابه الثورة ودرجات خطورتها ومستوى اهميتها والحاحها . وواضح ان المنطلق الاساسي لهذا التخطيط يجب ان يتحدد بماهية العقيدة ، اي يجب ان يكون منطلقا قوميا عربيا ، ولذلك فقد يختلف التخطيط النضالي للثورة القومية العربية عنه للثورة الاشتراكية الماركسية مثلا ، نظرا لاختلاف العقيدتين في الاسس التي تقومان عليها ، واختلافهما في المنطلق والاهداف، هذا بالاضافة الى اختلاف التجربة الثورية في كل امة باختلاف ظروفها .

٣ – وثالث هذه الشروط ، ان تتوفر للثورة العربية الاداة النضالية التي تمرست بالنضال وتصلبت بالتجربة العملية ، والتي لها من تمرسها وصلابتها واخلاصها ما يكفل لها السير بالثورة حتى النهاية : مستمدة أهدافها من العقيدة ومسترشدة في اسلوب وطريقة تحقيق هذه الاهداف بالتخطيط النضالي للثورة .

هذه هي الاسس الثلاثة التي لا بد ان تتوفر لضمان الثورة العربية الجذرية ولا شك ان لكل من هذه الاسس شروطها الخاصة بها ايضا مما لا يدخل في مجال بحثنا هنا . وعلى هذه الاسس نستطيع ان نناقش الحركات والاتجاهات العقائدية والنضالية والسياسية الموجودة في الوطن العربي . نناقشها من حيث ارتفاعها الى مستوى الثورة في عقيدتها ، وارتفاعها الى مستوى الثورة في تخطيطها النضالي (اذا كان لديها اي تخطيط نضالي مدروس) ، وارتفاعها الى مستوى الثورة في اداتها النضالية واهليتها لتوجيه الثورة وقيادتها . وان هذه الاسس الثلاثة : العقيدة الملبية الشاملة والتخطيط النضالي العلمي والاداة النضالية الموثوقة اسس مترابطة متساندة لا بد من توفرها كلها مجتمعة حتى نرتفع الى مستوى الثورة ، وبالتالي ، فان فقدان اي شرط منها ، كأن تتوفر العقيدة ولا يتوفر التخطيط النضالي ووعي طبيعة المرحلة واستراتيجيتها ، او كأن تتوفر العقيدة والتخطيط ولا تتوفر الاداة الموثوقة ، انما يعني عدم امكانية تحقيق الثورة العربية بشكلها الجذري الشامل .

ومن خلال هذه الاسس نستطيع ان نناقش معنى التحرر العربي لناجي علوش . واستنادا اليها نرى بوضوح ان الكاتب قد وقع في عدة اخطاء نجملها ببندين رئيسيين :

اولا : ان الكاتب يخلط خلطا واضحا بين العقيدة بشمولها من حيث التصور الذهني الكلي ، اي من حيث كونها مجموعة مبادىء ومفاهيم وانظمة ترسخت في نفوس المؤمنين بها كوحدة كلية لا تتجزأ ولا تقبل التجزئة ، وبين شروط تحقيق هذه العقيدة واسلوب وطريقة تطبيقها ، الامر الذي يرجع للتخطيط النضالي ، ويجب ان يتكيف حسب استراتيجية المرحلة ومتطلباتها وظروفها .

ثانيا : ان الكاتب رغم انه فارب الصواب في محاولة تفسير معنى التحرر العربي (من حيث التصور الذهني للقضية العربية الكلية لا من حيث اسلوب وطريقة تطبيقها) الا انه في اندفاعه ليبرر ضرورة النضال السياسي والاقتصادي والاجتماعي بكل هذه الجوانب مجتمعة ، وبوقت واحد ، وفي هذه الفترة متجاهلا او ناسيا استراتيجية المرحلة ، قد ارتكب اخطاء قومية يمكن ان تصل الى حد « الانحرافات الخطيرة » لولا انني اعلم ان الاستاذ علوش هو من دعاة الحرية والوحدة والاشتراكية ، ولذلك اعتبر رأيه شخصيا لا يمثل اتجاها جماعيا .

العقيدة بين الدعوة والتطبيق

العقيدة القومية التي تحدد اهداف الثورة العربية هي كل لا يتجزأ من حيث التصور الذهني ومن حيث الاعتقاد بها ، ذلك انها ايمان والايمان لا

يتجزأ . واذا كان هدف الثورةالعربية هو توحيد الوطن العربي وتحريره واسترداد الارض المغتصبة واقامة مجتمع اشتراكي ديموقراطي خلاق تتحقق فيه انسانية المجموع العربي وتتفجر طاقاته للعطاء الانساني ، اذا كانت هذه هي اهداف الثورة العربية ، فلا يمكن ان يقتصر الايمان بها على جوانب من جوانبها السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية ، لانه في هذه الحالة تخفض العقيدة من مستوى الثورة ، وتنكمش الثورة الجذرية الشاملة الى هبة جزئية سطحية . لا تجزئة في الايمان بالعقيدة بل وحدة كلية تشمل مختلف جوانب القضية العربية ومختلف وجوه ازمة الوجود العربي . لا بد للعقيدة ان تعطي منذ اليوم شكل الحياة العربية ومحتواها، وان تكون هذه النظرة الشاملة للوجود العربي واضحة منذ البدء بكل شمولها وعمقها في ذهن كل فرد طلائعي وكذلك في نفوس جماهير الشعب ، فلا بد للجماهير ان تعرف لماذا تناضل وفي سبيل ماذا تقاتل ، فهذا هو ضمان شعبية النضال وامتداده واستمراره .

العقيدة من حيث أنها نظرة شاملة كلية ومن حيث انها دعوة وتبشير ومن حيث انها وعي وايمان ، هي كل لا يتجزأ .

والسؤال هو : هل تفترضهذه العقيدة – التي هي في نفوسنا وتصورنا العقلي وحدة لا تتجزأ – ان تكون ايضا كلية في اسلوب تطبيقها ونقلها الى حيز الواقع ؟ هل نفهم وحدة العقيدة على انها كتلة جامدة لا تقبل الا ان نناضل في سبيلها في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي دفعة واحدة وعلى نفس المستوى والدرجة وفي نفس الشدة والعنف ، رغم أن هذه المجالات تتفاوت في خطورتها بالنسبة لكيان الامة، وأن المصلحة القومية تفترض تركيز الطاقات النضالية في بعض هذه المجالات ؟ وهل نفهم النظرة الشاملة فهما حرفيا ضيقا ونفسرها انها مجموعة افكار عمياء لا تعرف التقديم والتأخير والتفضيل والتأجيل الذي تقتضيه الظروف التي وجدت فيها الامةفي هذه المرحلة ؟

هنا يقع الكاتب في الخلط ، ويبدو المقال فهما نظريا للنضال العربي

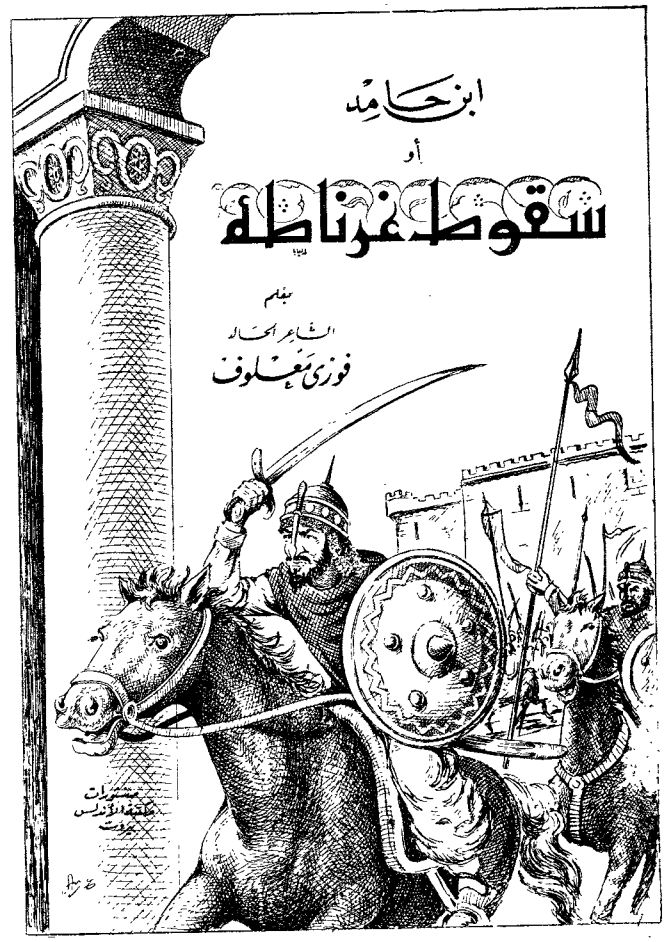

ولاستراتيجية هذا النضال ، ويدل على اهمال تام للشرط الثاني من شروط الثورة العربية وهو التخطيط النضالي العلمي الذي ينبع من ظروف المرحلة وطبيعتها واحتياجاتها الاساسية .

القضية العربية هي قضية ازمة الوجود العربي المتفاعلة المتشابكة بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهي أزمة الفرد العربي كما هي ازمة الامة بمجموعها . ولكن هذه الازمة الشاملة ليست « كلا ضبابيا » لا يمكن تحليله الى عناصره ، وليست شيئا وهميا « ليس لها ابعاد (١) ، واذا كانت القضية العربية قضية متفاعلة متشابكة ، فهذا لا يعني اننا امام كرة صلبة لا نستطيع ان نتعرف على حدودها ولا نعرف كيف ننفذ اليها . واذا كانت العقيدة قد حددت جوانب القضية العربية والاهداف التي ستقضي على ازمة الوجود العربي ، فهنا تأتي مهمة التخطيط النضالي : أن يحلل هذه الازمة الى عناصرها الرئيسية ،وأن يحدد المشاكل التي تدلل هذه المرحلة على انها اشد هذه المشاكل خطورة والحاحا وانها الحواجز الاساسية في طريق حل المشاكل الاخرى ، ومن ثم ان يسلط الاضواء على هذه المشاكل الاساسية ويركز الطاقات النضالية للشعب حولها .

فالمشاكل المتعددة التي تؤلف ازمة الوجود العربي ليست في مستوى واحد من الخطورة ، منها ما يتطلب المعالجة السريعة لانها تتعلق بمصير الامة العربية وكيانها وتضعها في «موقف وجود » اما ان تكون او لا تكون، ومنها ما يمكن تأجيله رغم اهميته لان اهميته نسبية تقاس بالنسبة للمشاكل التي تهدد كيان الامة . يقول الاستاذ ميشل عفلق معلقا على الظروف السياسية الخطيرة التي تمر بها الامة العربية في هذه المرحلة : «وكل هذا لا يستدعي توحيد النضال فحسب ، بل توفير وسائل النضال ايضا وذلك بتضحية العديد من النواحي غير الاساسية في حياتنا لتركيز معظم جهودنا على الامور القومية الحيوية التي تقرر مصيرنا وبقاءنا » (٢)

هذه هي المهمة الاساسية للتخطيط النضالي : ان يحدد استراتيجية النضال العربي ، واستراتيجية النضال العربي بكلمة هي : تصنيف المشاكل التي يعاني منها الواقع العربي حسب اهميتها وخطورتها ، وتحديد الطابع العام للمرحلة النضالية بما يتلاءم ودرجة اهمية تلك المشاكل ، ثم تعيين مجالات التركيز في النضال العربي بتحديد الشعارات المرحلية التي تمثل اهم مشاكل المرحلة والتي يجب ان تلتف حولها جموع الشعب.

فالتخطيط النضالي اذن يقوم على اسلوب المراحل في النضال .

الثورة العربية تفترض سياسة المراحل .

ومن هنا كانت العلاقة الوثيقة بين الثورة العربية ومرحلية النضال . فالثورة العربية الجذرية الشاملة لا تتحقق الا بتحقيق اهداف القومية العربية ، والعقيدة القومية لا تتحقق الا بتوفر تخطيط نضالي يحدد اسلوب وطريقة وكيفية وضعها موضع التنفيذ ، وسياسة المراحل (تحديد استراتيجية النضال العربي في كل مرحلة) هي المهمة الاساسية للتخطيط النضالي .

هذا التخطيط النضالي العلمي واستراتيجية النضال العربي يحددان بما لا يقبل الشك ، أن المرحلة التي تمربها الامة العربية في هذه الفترة هي : مرحلة استكمال مقومات وجودها القومي ، وشروط بقائها كأمة ، والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية الاخرى التي تعاني منها الامة يجب الا تطغى بحال من الاحوال على النضال لايجاد الكيان القومي الموحد المتحرر ، وما لم يوجد هذا الكيان اولا فلا معنى ولا سبيل لتحقيق النظم الاقتصادية والاجتماعية العادلة . فاستراتيجية النضال العربي تفترض : أن الطابع العام للنضال العربي في هذه المرحلة هو نضال سياسي ضد الاستعمار والتجزئة و«اسرائيل» والفئات الحاكمة والنفعية المرتبطة بالتجزئة لايجاد الكيان القومي الموحد المتحرر ، وان هذه الاخطار السياسية هي المشاكل الرئيسية في هذه المرحلة من حياة الامة .

---

(١) فريد ابو عيطه ، تعليق على كتاب « مع القومية العربية » الاداب تموز ١٩٥٧ .

(٢) مجلة البعث ، العدد ٣٩ ، كانون ثاني ١٩٥٧

وأن الطاقات النضالية البشرية والسياسية والاقتصادية والفكرية للامة العربية يجب ان تتركز في هذه المرحلة حول هذه المشاكل .

وأن شعارات النضال العربي التي يجب ان تلتف حولها جموع الامة وتصب معظم جهودها لدعمها ، شعارات مرحلية تنبع من طبيعة المرحلة واستراتيجيتها ، وهي تعبير عن الحلول للمشاكل الرئيسية فيها ، اي لا بد وان تكون شعارات سياسية . ومن هنا كان توحيد الوطن العربي والتحرر من الاستعمار والقضاء على الخطر اليهودي هي الشعارات المرحلية للامة التي يفرضها التخطيط النضالي السليم . هذه الشعارات اذا نظر اليها من زاوية المرحلة القائمة في الاهداف القريبة لهذه المرحلة التي يجب ان تتركز حولها الطاقات النضالية ، واذا نظر اليها بالنسبة للثورة العربية بشمولها وامتدادها ، فهي شعارات او اهداف مرحلة من مراحل هذه الثورة مبرر وجودها ان تمهد للمراحل الاخرى ، وأن تهيء الكيان العربي الواحد المتحرر الذي فيه وحده يتحقق المجتمع الاشتراكي الديمقراطي العادل ، اي ، ان تكون هذه الشعارات المرحلية طريق الوصول الى الاهداف النهائية للثورة .

الشعارات المرحلية ليست هي الاهداف النهائية بل هي اهداف قريبة مهمتها ان تكون ممرا للاهداف النهائية ..

والمراحل النضالية او المرحلة القائمة ليست هي الثورة من حيث محتواها وامتدادها ، بل هي مرحلة مهمتها ان تهيء للمراحل الاخرى ، فهذه المراحل تتصل اتصالا عضويا رحميا ببعضها البعض . ومجموع المراحل هو المحتوى الكلي للعقيدة الموضوعة منذ البدء .

هكذا تفهم سياسة المراحل اسلوبا علميا لوضع العقيدة موضع التحقيق واتصالا عضويا حيا ، وتأكيدا للطابع العام للمرحلة وتحديدا لمعركتنا الرئيسية ، ((فان كون هذه المرحلة من حياة الامة هي مرحلة نضال سياسي لايجاد الكيان العربي الواحد المتحرر ، لا ينفي ابدا ما للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية من تأثير كبير في الحياة العربية ، ولكن المشكلة السياسية هي أحد وأخطر مشكلة في الوقت الحاضر ، ومدى اهمية وأولوية اي من المشاكل تحددها طبيعة المرحلة التي تمر بها الامة .. وهذا لا يعني بالطبع عدم القيام باصلاحات اقتصادية على الاطلاق ، ابدا ... ولكن المقصود الا يصبح الطابع العام لهذه المرحلة هو نضال اقتصادي .. والمقصود ايضا ان اي تخطيط اقتصادي في هذه المرحلة من حياة الامة يجب ان يرتبط بحركة الامة السياسية بحيث يكون لهذه المعركة الاولوية دائما (١)))

فالكاتب بمهاجمته سياسة المراحل انما يدلل على عدم فهم استراتيجية النضال العربي ، واتصال المراحل النضالية اتصالا طبيعيا وعضويا لا ينفصل . انه في غمرة حماسه البريء لاجل الفكرة يخلط خلطا ساذجا بين الهدف وأسلوب تحقيق هذا الهدف ، كأن العقيدة كتاب يكفي ان تلقية وسط المجتمع حتى تتناثر محتوياته وتصبح انظمة قائمة بالفعل ... هكذا بكل بساطة ! لا تخطيط ولا مقتضيات مرحلة ولا اختلاف في مستوى اهمية المشاكل ... والواقع ان هذا هو بعينه ((تبسيط القضية العربية)) وهذه هي الخيالية في النضال التي ستؤدي الى فوضى النضال .

لا بد للحركة العربية ان تعي منذ الان ظروف المرحلة التي تعيشها الامة، وأن تحدد الطابع العام لكل مرحلة وأين ستتركز الطاقات النضالية وكيف ستوجه ، واذا رجع الاستاذ علوش الى الثورات التاريخية الكبرى للامم، بل والى الامثلة التي حاول ان يضرب بها اسلوب المراحل في النضال ،لوجد أن سياسة المراحل في النضال كانت هي الخط العام لكل التجارب الثورية ، وأن هذه التجارب الثورية التاريخية ما كانت لتتم بنفس الشكل والزمن فيما لو اتبع قادة النضال طريق الفوضى النضالية التي يوصل اليها اتجاهه ...

فكان طابع النضال الرئيسي للامة الالمانية في القرن التاسع عشر ، هو الوحدة والتحرر لان المرحلة التي تمر فيها كانت مرحلة استكمال مقومات وجودها القومي وشروط بقائها كأمة ، اي ايجاد المجتمع الالماني الواحد المتحرر ...

وتركيز النضال للامة الايطالية اولا وقبل كل شيء حول هذا الهدف ايضا .

والثورة البلشفية الروسية وثورة الصين (التي استشهد بها الكاتب لمهاجمة اسلوب المراحل) ، انما تظهران بوضوح التخبط الذي وقع فيه .

فقد كان اسلوب المراحل في النضال هو الاسلوب الذي قام عليه التخطيط النضالي للثورة البلشفية الروسية ، واستنادا اليه حدد الحزب الشيوعي مراحل الثورة الاشتراكية بثلاث مراحل رئيسية : مرحلة الثورة الديمقراطية البورجوازية (القضاء على القيصرية والارستقراطية) ومرحلة الثورة الاشتراكية العمالية واستلام الحكم ، وأخيرا مرحلة البناء الاشتراكي (١). ورغم انه قد تخلل المرحلتين الاوليين بعض النضال الاقتصادي ، الا انه اتخذ طابع نضالات فرعية كانت تخضع لتوجيه استراتيجية المرحلة ، والهدف منها خدمة اهداف تلك المرحلة المحددة مسبقا بحيث بقي دوما الطابع العام للمرحلة واضحا واستراتيجيتها متميزة تماما .

وسياسة المراحل في النضال في ثورة الصين ، اوضح منها في اي ثورة عالمية اخرى ، وكان النضال الثوري يتكيف حسب المراحل التي مرت بها الثورة وظروفها وطبيعة القوى التي تؤثر فيها . ويقول ماو تسي ـ تونغ شارحا طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الثورة الصينية اثناء النضال ضد الاستعمار الياباني : ((عندما يشعل الاستعمار نيران حرب،

(١) : مع القومية العربية ، صفحة ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(١) : مع التأكيد مرة اخرى ان التخطيط النضالي العربي يمكن ان يختلف عن تخطيط الثورة البلشفية لاختلاف العقيدتين في النظرة للحياة والاهداف ، والتأكيد ايضا على اختلاف ظروف التجربتين ، والاستشهاد هنا لايضاح التخطيط النضالي في تجربة ثورية كبيرة .

الطبقة الجديدة

تأليف

ميلوفان ديلاس

ترجمة

مروان الجابري

الكتاب الذي اثار المحافل السياسية الدولية

يصدر عن المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر

عدوانية فان الطبقات المختلفة في هذا البلد ، باستثناء عصابة صغيرة من الخونة ، يمكن مؤقتا ، ان تتحد لتخوض غمار حرب وطنية ضد الاستعمار، وفي مثل هذا الوقت يصبح التناقض بين الاستعمار وذلك البلد التناقض الرئيسي ، بينما سائر التناقضات بين مختلف الطبقات داخل ذلك البلد (بما فيها التناقض الرئيسي بين النظام الاقطاعي وجماهير الشعب الغفيرة) تبعد مؤقتا الى مركز ثانوي او تابع . تلككانت الحالة في الصين اثناء حرب الافيون عام ١٨٩٤ وحرب البوكسر ١٩٠٠ ، وكذلك هي الحال في الحرب الصينية اليابانية الراهنة » .

ثم يقول : « ولان الكيومنتانغ اظهر رغبته في مقاومة اليابانيين في الفترة الراهنة من حرب المقاومة ضد العدوان الياباني ، فقد اتخذالحزب الشيوعي سياسة معتدلة تجاهه وتجاه القوى الاقطاعية الداخلية . » (١)

هكذا كان التخطيط النضالي في تجربتين ثوريتين كبيرتين يقوم على سياسة المراحل في النضال ، واستشهاد الكاتب بهما لا يدلل على خطأ سياسة المراحل انما يدل على محاولة يائسة للدفاع عن تخطيط نضالي آخر (اذا كان هناك اي تخطيط) تثبت التجارب النضالية عقمه وفشله .

وثورة مصر ، رغم انه لا يمكن ولا يجوز مناقشتها منفصلة عن القضية العربية ككل ،الا ان التخطيط المرحلي فيها لا يمكن ان يخطئه اي دارس متجرد في بحثه ... لقد اعلن رجال الثورة في مصر ان هدفهم بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي، هذا هو الهدف، اما المرحلة التي يمرون بهاالان فهي مرحلة تدعيم الاستقلال السياسي وبناء مجتمع تعاوني(تتعاون فيه جميع الطبقات) يمهد للمجتمع الاشتراكي الديمقراطي فيما بعد ، وتنمية الراسمال الوطني (٢) . هذا بالرغم من ان رجال الثورة في مصر هم في الحكم ويقبضون على زمامالسلطة بأيديهم ..

وثورة الهند ايضا ، لقد حاول الكاتب ان يوردها كمثل على خطأ سياسة المراحل في النضال فاستشهد بقول نهرو : « وظهر ميل نحو الاشتراكية عندما اصدر المؤتمر المعقود في كراتشي عام ١٩٣١ قرارا هاما حول الحقوق الاساسية والبرامج الاقتصادية .. وهكذا ، اصبح الكفاح من اجل الاستقلال يتعدى مجرد نيل الحرية السياسية الى نيل نظام اجتماعي اشتراكي ... » . والواقع ، أنني لست ادري لماذا اوردالكاتب هذا المثال ، فهو هنا يثبت صحة سياسة المراحل ولا ينفيها . لقد تبنى حزب المؤتمر الهندي الاشتراكية والديمقراطية على انهما الاهداف النهائية التي يريد ان يطبقها في الهند . اما اسلوب تحقيق هذه الاهداف ، واما التخطيط النضالي لها ، فقد قاما على سياسة المراحل في النضال . ولو رجع الكاتب ـ بتجرد ـ الى الثورة الهندية لوجد ان الثورة قد مرت في مرحلتين ، مرحلة توحيد الهند والتحرر من الاستعمار البريطاني ومرحلة اقامة المجتمع الاشتراكي الديمقراطي . ان نهرو لم يسر في سياسة النظام الاقتصادي الموجه نحو البناء الاشتراكي الا بعد طرد الاستعمار البريطاني .. والكاتب هنا ايضا يخلط بين الهدفوأسلوب تحقيق الهدف ، بين العقيدة كتصور ذهني وايمان وبين العقيدة في حيز التطبيق .

ان هذه الحقائق النضالية المستمدة من تجارب النضال الثوري تدلل بوضوح ان دعوةالشعب الى النضال على جميع الجبهات : الخارجية والداخلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مجتمعة وبوقت واحد وفي هذه المرحلة هي مثالية النضال الخيالية التي ستحول القضية العربية والثورة العربية الى خليط متنافر ونضال شعب الى خبطات عمياء مشتتة . وبهذا التخطيط انما نحول الثورة الى ثورة وهمية لا يمكن ان تسير سيرا موزونا في معارج النضال العملي .. انها ثورة احلام اليقظة ، تنسجها تخيلات بعض الافراد في صومعاتهم الفكرية . وحين تنزل هذه التخيلات المطلقة والفهم النظري لشروط تحقيق الثورة الى حيز واقع النضال العملي ، لا بد وان يصدمها الواقع بمقتضيات المرحلة ، وعندئذ تكون امام احتمالين : اما ان تستمر في مثالية النضال المجردة .. في فوضى النضال ، واما ان تستجيب لطبيعة المرحلة ومقتضياتها وتخطط للثورة على اساس اسلوب المراحل في النضال . ولقد بدأ اصحاب الاتجاه نفسه يعترفون تدريجيا بالمرحلية ويلمسون ان اسلوب المراحل لوضع العقيدة موضع التنفيذ ضرورة تنظيمية نضالية .

يقول الاستاذ ميشل عفلق معلقا على تركز خطر الاستعمار(١):«والجواب اللائق بهذا الهجوم الجديد ان ننتقل الى مرحلة اعلى وانضج في توحيد النضال العربي نجسد بها ايماننا بوحدة امتنا تجسيدا عمليا واعيا ،فنضع قضايا النضال العربي فوق القضايا والحاجات المحلية بشكل يخدم القضية القومية الكبرى ، وهذا يقتضي وضع خطة شاملة بعيدة النظر والمدى تعالج الحاضر على هدي المستقبل القويم ، وتعين المراحل والامور المستعجلة المعالجة والامور التي يمكن تأجيلها .»

ويقول ايضا (٢) : « ولكن الاختلاف في العقائد السياسية والاجتماعية لا يوجب الانقسام الا في مرحلة تأسيس الدولة العربية الواحدةوالمجتمع العربي الموحد . اما قبل هذه المرحلة والى ان نحرر وطننا الكبير من حكم الاجنبي واستعماره ، فجميع العقائد تلتقي على مصلحة حيوية قاهرة هي مصلحة تحرير الوطن العربي الذي اذا فقدت حريته وسيادته فلن يبقى فيه مكان ولا معنى للعقائد واختلافها ..

« فالوقت جد مناسب لاعادة النظر وزيادة التوضيح في سبيلتصحيح حياتنا الحزبية قبل ان تتبلور وتعميق تربيتنا السياسية والقومية قبل ان تصبح الاوهام والاهواء جزءا من دمها ولحمها ! وانأهم مقياس نهتدي به في هذا التصحيح هو اولا : تعيين اهداف المرحلة التي نجتازها لكي

(١) : ماو تسي ـ تونغ ، معالجة المتناقضاتبين صفوف الشعب .
(٢) : من خطاب جمال عبد الناصر في ذكرى الثورة المصرية والذي شرح فيه طبيعة المرحلة التي تمر بها مصر .

(١) مجلة البعث ، عدد ٣٩ ، كانون الثاني ١٩٥٧
(٢) مجلة البعث ، عدد ٥٤ ، ايار ١٩٥٧

لا نختلف اليوم على شيء لم يحن بعد وقت تحقيقه ولم يحن بالتالي وقت الاختلاف عليه » ... (١) ...

ثم يقول : « ان احدا لم يقل ان هذه المرحلة التحررية هي مرحلة دك العروش وتأميم الصناعات واستيلاء العمال والفلاحين على المصانع والاراضي، بل ان جميع المواطنين العرب هم على اختلاف طبقاتهم وثرواتهم يكسبون اليوم كسبا كبيرا اذا هم تضامنوا وساهموا في النضال والتضحية لكي ينقذوا الوطن العربي من الاستعمار » .. (٢)

انه اسلوب المراحل ..ومقتضيات المرحلة الحاضرة من حياة الامة التي تفرض عليها تركيز جهودها وامكانياتها لحل المشاكل السياسية ، واستكمال وحماية كيانها القومي قبل ان تلتفت جديا لمعالجة الظلم الاقتصادي ـ والاجتماعي الذي تعيش فيه . يقول الاستاذ اكرم الحوراني :

«لا بد وأن نوضح موقف حزبنا بجلاء من الرأسمال الوطني حتى لا ينخدع المواطنون بالدعايات الاستعمارية ، وحتى لا يصبح كبار التجار واصحاب رؤوس الاموال فريسة في ايدي الاستعمار وعملاء الاستعمار.. ان الاشتراكيين العرب يعتبرون تنمية رؤوس الاموال الوطنية طريقا لتصنيع البلاد ، ولا يمكن لبلاد عربية ان تحقق حريتها ووحدتها واستقلالها ما لم تخرج من المرحلة الزراعية المتخلفة الى المرحلة الصناعية، لذلك كان تشجيع رؤوس الاموال الوطنية هدفا من اهداف الوطنيين العرب .

« ان تبني حزبنا لقضايا الفلاحين والعمال ورفع مستواهم المادي والمعنوي بمنع استغلالهم لا يعني مطلقا عداءنا او وقوفنا موقفا سلبيا من تنمية رؤوس الاموال الوطنية في هذه المرحلة من تطور البلاد العربية ..»

ثم يقول : « كيف يجوز لنا الا نقف موقف المشجع والمنشط لرؤوس الاموال الوطنية اكثر من اصحابها بالذات ونحن نعلم ان العرب في هذا الظرف يخوضون معركة وطنية ضد الاستعمار الغربي و «اسرائيل» ؟!!

انه ايضا اسلوب المراحل في النضال ، بل وتحديد الاخطار والمشاكل الرئيسية واستراتيجية النضال العربي في هذه المرحلة .. وهل نكون في هذه السياسة قد تنازلنا عن الاشتراكية ؟ هل نكون قد نزلنا بالعقيدة من مستوى العقيدة الى مستوى الشعارات ؟ وهل يفسر هذا التخطيط النضالي مهادنة للرجعية والرأسمالية والاقطاعية ؟ وهل نفسر هذا التخطيط النضالي تجزئة للقضية العربية ؟

هنا يقع ايضا الكاتب في الخلط بين العقيدة كايمان لا يتجزأ في نفوسنا ، وبين اسلوب تحقيق هذه العقيدة الذي يعترض التركيز والتقديم والتأجيل في اهداف العقيدة حسب مقتضيات المرحلة ، وهنا ايضا يقع دعاة اتجاه « النضال الكلي » ويقع الكاتب بالتالي في التناقض الناشيء عن عدم التفريق بين الشعارات المرحلية والاهداف النهائية للعقيدة .

ولا خوف أن يتجزأ النضال : « فان مراحل النضال العربي ،السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تنفصل عن بعضها فصلا جامدا ، بل هي على العكس تتصل اتصالا طبيعيا بحيث تؤدي كل مرحلة الى الثانية .فتحقيق الوحدة والتحرر والثأر واختراق المشكلة السياسية ، سيبني لنا الكيان العربي الموحد المتحرر الذي تتوفر فيه منوعات الاقتصاد الاشتراكي وتتحقق فيه الديمقراطية .. فنحن الان في مرحلة تهيئة للمجتمع القومي العربي المقبل . فالرسالة العربية تجد بذورها في المرحلة السياسية والمرحلة الاقتصادية والاجتماعية ، وهذه المرحلة تجد بذورها في المرحلة السياسية . وهكذا يتجدد النضال بمراحل لكل مرحلة محتوى معين والمجموع الكلي للمراحل هو الاهداف العربية .» (٣)

ولا خوف ان ينحرف النضال بعد تحقيقه اهداف هذه المرحلة : « لان هذا النضال لم يترك المرحلة الثانية دون تحديد ، بل حددها بأنها مرحلة بناء اشتراكي ديمقراطي عام ، ولكنه ارتكز الى نقطة انطلاق وهي المشكلة السياسية ، لانه لا يمكن النضال ضد هذا الواقع بكل جوانبه وعلى كل جبهاته دفعة واحدة (١) . كما جاء في نفس الكتاب : « لا خوف على النضال الوطني الحاضر ان ينحرف او يتوقف بعد تحقيق الاهداف القريبة للمرحلة الحاضرة كما حدث في كثير من المرات للنضال الماضي ، لان النضال الحاضر يستند الى عقيدة وستقوده فئات عقائدية ، والعقيدة كل لا يتجزأ وان كانت تطبق على مراحل ، والمرحلية في النضال هي غير التجزئة في النضال ، وحين يعرف النضال مسبقا محتوى كل مرحلة لن يكون هناك خوف من الانحراف وانما ستهيء كل مرحلة للثانية ، ومجموع المراحل هو المحتوى الكلي للعقيدة في النهاية . » (٢)

بعد هذه الامثلة الواضحة في كتاب « مع القومية العربية » الذي استند اليه الكاتب في مقاله ، لست اجد تفسيرا لفهم الكاتب سياسة المراحل في النضال على أنها « الخلية التي تتوالد فيها البورجوازية » ودعوة « لجعل الشعارات المرحلية منطلقا واساسا بدل ان تكون الشعارات المرحلية تعبيرا عن موقف تواجهه الثورة » ، لست أجد تفسيرا لذلك سوى احد احتمالين : اما ان الكاتب لم يفهم محتويات الكتاب ، واما انه تعمد عدم فهمه .

ان العقيدة القومية كل لا يتجزأ ، ولكن اسلوب تحقيقها يستلزم المرحلية التي هي اتصال طبيعي وليست تقسيما مصطنعا للقضية . وان كون العقيدة القومية كل لا يتجزأ لا يعني انها كل جامد ميت ، بل على العكس وحدة حية حركية تعيش المرحلة وتتكيف بمقتضيات النضال العملي ،واذا فهمنا من الوحدة والكلية الجمود فانما نجرد العقيدة من اهم شروطها ،من علميتها وحركيتها وتطورها وقدرتها على التفاعل .. اننا نقتل العقيدة . انه جميل بل وحقنا وواجبنا ان نؤمن بالثورة العربية ونناضل لتحقيقها، وهذا مبرر وجود الانسان العربي في هذه المرحلة ، ولكن الاجمل وما هو حقنا وواجبنا بالفعل ، ان نرتفع في طريقة تفكيرنا الى مستوى الثورة، وأن نتخلص من الايمان الطفولي الذي يضعنا امام العقيدة كالطفل الصغير الحائر الذي تبهره ضخامة الشيء فلا يعرف كيف ينفذ اليه ، وأن ننزل من تخطيطاتنا النظرية الى حيز الواقع لنختبر هذه التخطيطات على ضوء النضال العملي ومدى تلاؤمها وتكيفها مع مستلزمات ظروف المرحلة التي نعيش واحتياجاتها .

دمشق — حكم دروزة

(١) نفس المصدر . صفحة ١٦٨
(٢) نفس المصدر . صفحة ١٦٩

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر السابق
(٣) : كتاب مع القومية العربية . صفحة ١٦٧